هل نتطلع
إلى فجر جديد للاصلاح ؟(١)

لحضرة صاحب السعادة الأستاذ محمد العشماوى بك

تفضل قسم الخدمة العامة فى هذه الجامعة الأمريكية الكريمة ، فدعانى إلى أن ألقى أولى محاضرات هذا العام ، محددا لى موضوع المحاضرة " هل يشهد العالم فجر يوم جديد فى الإصلاح الاجتماعى" فأوقعنى بهذا التحديد فى حرج كبير ، فان موضوع المحاضرة له خطره والحديث عن فجر يوم جديد حديث له دقته وغموضه لارتباطه بالمستقبل المجهول المفعم بالآمال . وتفضل معالى وزير المعارف برياسة الاجتماع فزاد ذلك فى حرجى . وتفضل دولة رئيس الوزراء بالحضور لليلة يتوسط عقد هذه الطائفة المختارة من قادة الرأى وأعلام الفكر فزادنى ذلك حرجا على حرج . على أنى حين لبيت الدعوة إلى إلقاء هذه المحاضرة لم ألبها بلا قيد ولا شرط ، وإنما اشترطت أن ألقى حديثا مرتجلا لأتحلل من قيود المحاضرة وما تتطلبه من بحث وتحليل واستنتاج ومستوى يتناسب مع روعة الموضوع وجلال الموقف .

ومن غريب الاتفاق أن موضوع المحاضرة يرتبط بالمستقبل المغيب ، وكل ما يقال عن المستقبل إنما هو ارتجال لأن المغيب فى ذمة الاقدار التى تخلف كثيرا من الظنون ، ولذلك كان ارتجال الكلام فى هذا الموضوع أسبب وأوفى .

ونحن نفكر ونقدر : "هل يشهد العالم فجر يوم جديد" فى حين أن العالم تضطرم فيه نار حرب لم تبق على أخضر ولا يابس ، والنفوس يشيع فيها القلق والاضطراب من جراء ما تعانى الأمم من ويلات القتال ، فقد أطلتنا حمراء كئيبة تملأ جلاله أضواء تظهر تارة ثم تختفى تارات ، وتبعث الأمل ساعة ثم تعود فى اليأس ساعات . نسمع صيحات تمنينا بمستقبل نتلق فيه السعادة حين تنكشف هذه الغمة ، ونحيا حياة قوية سليمة فيها الثراء والرخاء . فنحن فى ظروف غير طبيعية اهتزت فيها أركان الطمأنينة النفسية واضطربت نواحى التفكير ، حتى أصبح الإصلاح كلمة يصعب تحديدها . فما أرعاية البائس المحروم ؟ إن كان الفجر الذى نتطلع إلى ضوئه هو أن ترق القلوب فذلك فجر إن بعد عنا أو قرب منا لا يغير من أوضاع المجتمع الذى نشكوه . ولابد لنا من فجر تتغير فيه الأوضاع كلها من أساليب الحكم إلى وسائل الثقافة إلى نظم الاقتصاد ، وتحل محلها أوضاع تحقق التكافل العام لا بين أفراد أمة بعينها بل بين الأمم جميعا ، قصد الوصول لإنشاء مجتمع سليم تتوافر له أسباب السلام . وإنى لتغمرنى عاطفة من عدم الرضا ومن ضعف الأمل ، ولهذا يصعب أن تطمعوا منى فى طمأنينة لاستطلاع فجر جديد يغمر بنوره العالم جميعا . فأنا أعمل فى ميدان اجتماعى

---

(١) المحاضرة التى ألقاها سعادته فى الجامعة الأمريكية مساء الخميس ١٠ فبراير سنة ١٩٤٤ بدعوة من قسم خدمة العامة .

محدود لطائفة من قومى ، ولا أنكر أن ثمة توثبا لإصلاح حق ، ولكن الخطى بطيئة لا تناسب ما ترسمه مصر لنفسها من مطامع وأغراض تردها إلى الصف الأول بين الأمم المتحضرة . ومن دواعى عدم الرضا عندى أنى أرى الوعى الاجتماعى يستيقظ فى خمول وتراخ لا يرجى معه عاجل الخير ، وأن الضمير القومى حين يثور ليعلن غضبته لا يلبث أن يستكين ويدركه الركود . ومن دواعى عدم الرضا عندى أن أرى الإصلاح مرتجلا ليس وليد دراسة شاملة للشئون الصحية والثقافية والروحية وأساليب الحكم . وأرى كذلك أن المجتمع المصرى تتباين طبقاته أشد تباين ، فبينما تنعم طائفة معدومة بالمعرفة العليا تغمر الملايين أمية عميقة وجهالة متغلغلة . وبينما تتلألأ المدن يخيم الظلام على الريف . وإذا كان فى ذلك ما يبعث على عدم الرضا ، فإن هناك ما يدعو إلى التفاؤل وارتقاب عهد جديد . فقد شعر ، حاكمين ومحكومين : بحاجتنا إلى الإصلاح ، وبدأنا نقرأ فى الميزانية ما يرصد من الأموال فى سبيل الصحة والتعليم ورعاية مختلف الطبقات . ورأينا كثيرا من الجمعيات تواصل نشاطها بمؤازرة الحكومة وتأييدها . ولكن أخوف ما أخافه أن تكون هذه الصيحات التى نسمعها والنشاط الذى نلحظ مظاهره نوعا من حمى الحرب فإن الحرب كارثة ، ومن شأن الكوارث أن تحرك العواطف وتزلزل القلوب . حتى إذا انتهت هذه الحرب عادت العواطف تسكن فتجمد ، وتغيب تهدأ فتجد ثم تخفى الدعوات ويتلاشى رنين الصرخات فيتأخر فجر الاصلاح .

ومما يبعث على عدم تكوين رأى صحيح فى طلوع هذا الفجر أن الظلام إذا حل ارتقب الناس بشرا يلوح نوره ، ولكن فجر الإصلاح غير فجر الليل والنهار ، فالإصلاح إذا اقترب فجره بدت له علامات ومقدمات ووسائل ، فهل توافرت لنا المعدلات وتهيأت الظروف لكى يعالعنا فجر جديد .

نتساءل أولا ، ما هو الاصلاح الاجتماعى ؟ قد نختلف كثيرا فى الجواب عن هذا السؤال ، ولكن الاصلاح يتحقق عندى فى معنى واحد ، نقول فى دساتيرنا الحديثة الأمة مصدر السلطات ، فرد اليها كل سلطة وكل حق ، ليتوافر للامة إذن كرامة وإصلاح حليقان بالسيد وإلا كان سيدا يائسا عاجزا عن مباشرة سيادته والتمتع بمظاهرها وحقائقها ، فيجب أولا أن تكون الحريات والحقوق الدستورية موزعة بالسوية بين أفراد الأمة ، والواجبات بينهم جميعا متعادلة متكافئة ، يؤدى كل ويؤدى له ، ويجب أيضا رفع المستوى الاجتماعى رفعا يحقق لكل فرد حاجات الإنسانية الكريمة ، تقوية روحه وكرامته وحريته ، ولا أقصد بالحرية تلك الحرية المدمرة التى تترك الحبل على الغارب ، ولكنى أعنى حرية التكوين الصالح لأداء عمل صالح . وإذن يتحقق معنى الديمقراطية التى يصطرع العالم فى سبيلها ، وتعمل الأمم المتحدة على كسب معركتها . فليست الديمقراطية أوضاعا شكلية ، ولكنها حياة تتغلغل فيها قواعد المساواة ، ولا أعنى بالمساواة أن يظل الناس جميعا عيشا واحدا وتوفر

لهم موارد متكافئة ، فهذا وضع لا يستقيم به مجتمع سليم ، ولكنى أعنى بها أن يقدم القادر للعاجز ما عنده من فضل القدرة ، ويكون لكل ضعيف أو محروم نصيب من الرعاية يكفل له الطمأنينة فى حياته ، ومامظاهر الخدمة الاجتماعية إلا مرآة لتلك الروح ، واستجابة للنصيحة إلى تنظيم مستوى تتساند فيه قوى الأمة لتكوين حياة كريمة مثمرة .

نحن نطلب فجرا جديدا ، فما الوسائل التى تعجل به ؟ يجب لكى نعجل بالفجر المنشود أن نمهد إلى الاصلاح بدعاية واسعة المدى ، فعصر فى وعى جديد بدأ يشب ، وضمير حى جربنا صولته فى الملمات ، وعصر كذلك بالخير ، والأديان كلها فيه تحض على البر والصدقة وأغلب لأمة يدين بالإسلام وهو دين المعروف والإحسان . فيجب أن نستغل كل هذه الينابيع فى سبيل الدعوة إلى أهدافنا الاجتماعية والعمل على تحقيقها بأشتات الوسائل . والواقع أننا نعانى مشقة فى سبيل الدعوة إلى البر ، وآية ذلك احتيال بعض الهيئات على جمع المال للمشروعات الخيرية بطريق المتعة واللهو . فهذه الهيئات اضطرت إلى استدرار العطف وتقوية الروح من طريق استغلال الغرائز واستخدام الميول الشريرة ، وهذا يدل على أننا فى دور تغالب فيه الروح الجسد ، وستكون الغلبة للروح باذن الله .

وفى سبيل الدعوة إلى الاصلاح يجب أن نحدد نوع المجتمع الذى ندعو اليه ، وإننا لمختلفون على هذا التحديد ، وان كنا متفقين على الحاجة الى المستشفيات والملاجىء والمدارس وهذا لاختلاف يرجع الى أننا بدأنا الدعوة من عهد قريب ، والتباين فى مجتمعنا المثقف واضح كبير : فينا متطرفون لا يعبأون بوعورة الطريق وكثرة العراقيل . وفينا متحفظون يرون فى الماضى وصوره راحة وطمأنينة وبهجة فيستكينون لما أسموه سلطان التقاليد . وفينا متذبذبون بين هؤلاء وهؤلاء ، يمدون خطوة الى الأمام ويرتدون خطوة الى الوراء . فيجب أن نتفق أولا على أن المجتمع يسلم حين يتمتع كل فرد بكرامته وحريته ونتاجه ، بشرط ألا يسلمنا ذلك إلى فردية ممقوتة . والذى نريده أن يعيش الفرد لنفسه وللمجتمع ، وأن يزيد فى ثروته ليرفع من شأن أمته ويقدم من ماله عونا لمن هم فى حاجة إلى العون ، وعلينا أن نشعر بأننا ركاب سفينة واحدة إن عبث أحدنا بالسفينة غرق وأغرقنا معه ، فالمجتمع جسم واحد تتعاون أعضاؤه على توفير السلامة العامة له . فنحن لا نريد فردا كالآلة مسلوب الإرادة فى حركته ، وانما نريد فردا يتوافر له استقلاله ، ويؤمن بما عليه من أعباء اجتماعية لقومه ووطنه . فلا يبخل بالتضحية فى سبيل سلامة الجميع .

ولكى يطالعنا الفجر الجديد المنشود يجب أن نحيا فى السلم حياة الحرب . فقد تعلمنا فى هذه الأيام الشداد ألوانا من النظام ووحدة الأهداف وتنظيم الموارد وتوزيع الثروات ، فلتكن حياتنا فى السلم على هذا النحو لكى نواجه العدو الداخلى . وأذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى عودته من بعض المغازى : عدنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفس . فلنجند أنفسنا فى السلم كما جندناها فى الحرب لكسب قضية السلم ،

حتى لا يكون منا المتعطلون الاجتماعيون الهاربون من أعباء الأسرة ليفوزوا بالدعة والعبث، والمتعطلون المترفون الذين يعيشون من رءوس أموالهم لا يؤدون عملا ولا يشتركون فى جهد. ويجب أن يكون هدف الجيش المجند للاصلاح تحقيق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص فى أوسع مداه، لا يقتصر على مرحلة من مراحل التعليم تزال منها عقبة النفقات الدراسية، بل يشمل تكافؤ الفرص كل الحقوق والمراحل والأعباء. ولقد يكون مما يدعو الى الأسف أن العدل المرجو من الفصل فى منازعات الناس لا يوصل اليه إلا بأجر، فمن الواجب أن يكون الطريق الى العدل ممهدا لاعقبة فيه، حتى لا يهاب الضعيف صولة القوى، وحتى ينتصف المظلوم من الظالم بأيسر الجهد وأقل النفقات.

ولابد فى تحقيق هدفنا الاجتماعى من تجنيد المرأة، وهنا تأتى ضرورة توزيع العمل وفقا للكفايات، ونحن محتاجون إلى جهود المرأة فى الميدان الاجتماعى، وأكبر الميادين وأعظمها خطرا هو ميدان الأسرة، ولذلك قيل إن الطفل محروم ولو تقلب فى أكناف النعمة والترف، لأنه حرم الأم المثقفة التى ترعاه وتتابع تنشئة روحه وسلامتها فى مختلف المراحل. فهى المسئولة عن خيبة الطفولة وخيبة الشباب وخيبة الرجولة، لأن فى مصدورها إذا أعدت رسالتها أن تعمل على نجاح الطفولة وقوة الشباب وعظمة الرجولة. وإذا أهملنا المرأة فلا نجرؤ بطالعنا قريبا أو بعيدا. واذا تحلت المرأة عن ميدان الأسرة وميدان الخدمة الاجتماعية فستتخلى بهذا عن أشرف الميادين وأكبرها أثرا فى خدمة المجتمع الذى ينشده المصلحون. ولقد قذفت الظروف بالمرأة فى ميادين شتى، وستعود حتما الى ميدانها الطبيعى لكسب معركة الإصلاح، فلتقصر عملها عليه حتى لا تنهار دعائم الأسرة فتنهار دعائم الأمة على الأثر.

ولكى يطالعنا فجر جديد يجب أن يتدخل المشرع ليفرض الإصلاح فرضا. والتشريع فى نظرى هو قوة السيف التى عناها شاعرنا شوقى فى قصيدته يصف الدعوة المحمدية وما اتخذ لها من وسائل.

لما أتى لك طوعا كل ذى حسب تكفل السيف بالجهال والعمم

هنالك طائفة لاتدفعهم ضمائرهم إلى العمل، فلهؤلاء يجب أن يقوم ميزان الجزاء. ولا أظننى مبالغا أو متجنيا إذا صرحت بأن الناحية الاجتماعية ضعيفة فى تشريعنا إلى درجة مزعجة، وإن كانت التشريعات العرفية التى قضت بها الظروف الحاضرة قد تناولت بالعلاج الوقتى طرفا من تلك الناحية، فنحن نريد تشريعا يفرض المساهمة بالمال والجهد فى سبيل الإصلاح فرضا، ويزجر بالعقوبة من لا يندفع إلى تلك المساهمة بوحى من ضميره ووعيه الاجتماعى.

وإن عندنا لتشريعا يهدد بالعقوبة من يحاول الاعتداء على سلامة الدولة . فأما الاعتداء على سلامة المجتمع من الوجهة الروحية فقد خلا التشريع حتى اليوم من فرض العقوبة عليه . ونحن كذلك نريد تشريعا يحمى الغذاء الروحى كتشريعنا الذى يحمى الناس شر الغذاء المادى الفاسد . كما أن وزارة الصحة تطلق أعوانها لمراقبة الأغذية فى كل مكان ، يجب أن تكون لوزارة الشؤون الاجتماعية رقابة على غذاء العقول والنفوس فى مختلف أواعه وظواهره . إذ لا بد فى معركة الإصلاح من سلاح التشريع ليصون الروح كالتشريع الذى يصون الجسد.

فإذا تم لنا ذلك كله ، جاز لنا أن نرقب مطلع فجر جديد . فأما إذا ظللنا على حالنا لا نتخذ الوسائل والمقدمات فلا فجر ولا نور بل ظلام حالك من اليأس القاتل .

والواقع أن المجتمع المصرى قد تغير عن ذى قبل . تغير فى نفس أبنائه ، فأصبحنا نحس وعيا ونسمع رأيا ونرى اتجاها ورغبة ، فعينا أن نقوى الوعى الاجتماعى ونقوم الرأى ونسدد ما نراه من رغبة واتجاه . ولا سبيل إلى استثمار ذلك كله إلا إذا نشأنا حكومة وشعبا واتخذنا خططا عملية لخوض معركة الاصلاح فى قوة بأس وقوة يقين .

سيداتى سادتى :

طالما شوقنى فى أوائل هذا القرن بصورة مفزعة مؤلمة للمجتمع العلمى فى تلك المنجاة التى عقدها بحيله الرائع بين فيلسوف المعرة وتولستوى حين قال ونفسه تفيض ألما :

تسائلنى هل غير الناس ما بهم ... وهل حدثت غير الأمور أمور
وهل أثر الإحسان والرفق عالم ... دواعى الأذى والشر فيه كثير
وهل سلكوا سبل المحبة بينهم ... كما تتصافى أسرة وعشير
وهل عالج الأحياء بؤسا وشقوة ... وقل فساد بينهم وشرور
قم انظر وأنت المالىء لأرض حكمة ... أأجدى نظيم أم أفاد نثير
أرى الناس كما تدرى ودنيا بحالها ... ودهر رخى تارة وعسير
وأحوال خلق غاير متجدد ... تشابه فيها أول وأخير
تمر تباعا فى الحياة كأنها ... ملاعب لا ترخى لهن ستور
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى ... وغش وإفك فى الحياة وزور
وقام مقام الفرد فى كل أمة ... على الحكم جم يستبد غفير
وأضحى نفوذ المال لا أمر فى الورى ... ولا نهى إلا ما يرى ويشير
تساس حكومات به وممالك ... وتذعن أقيال له وصدور

وعصر بنـوه فى السلاح وحرصه على السلم يجـرى ذكره ويدير
ومن عجب فى ظلهـا وهو وارف يصادف شـعبا آمنـا فيغـير
ويأخذ من قوت الفقير وكسبه ويثوى جيوشـا كالحصى ويمير

فهل يطالعنا الفجر الذى نرقبه بصورة وضاءة تشع النور والأمـل فى النفوس، وتذيب بضيائها ظلام هذه الصورة ، ذلك ما نرجو ولو أننا لا نزال فى دور التفكير والتوثب ، ولو أن تباشير هذا الفجر لم تبد فى الأفق بعد .

وإنى أختتم حديثى بشكر الجامعة الأمريكية على كريم دعوتها وما تبذله من جهد فى سبيل نشر الثقافة الاجتماعية ، وأكرر لكم اعتذارى من أنى لم أستطع أن أكون المحاضر الذى انتظرتموه بل اقتصر الأمر على حديث مرتجل فاض به شعورى ونجوى نفسى . وحسبى أنى أطلعكم بما أعتقده فى فترة تطامنا إلى بفجر جديد لإصلاح المجتمع .

وسلام على المصلحين العاملين .

محمد العشماوى

المستشار الملكى

من حكم الامام على

أوصيكم بخمس لو ضربتم اليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلا : لا يرجون أحد منكم إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه . ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ولا يستحين أحدا لم يعلم الشىء أن يتعلمه . وعليكم بالصبر فان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ولا خير فى جسد لا رأس معه ، ولا فى إيمان لا صبر معه .